

أمريكا وسياسة الهيمنة الامبراطورية

د. محمد عبد العزيز ربيع

يختلف علماء السياسة والتاريخ حول دور أمريكا على الساحة الدولية ، وفيما إذا كانت الولايات المتحدة قد لعبت دور الامبراطورية المهمة عن سابق اصرار ، أم أن الظروف الدولية اجبرتها على القيام بذلك الدور خلافا لرغباتها. إذ هناك من يقول بأن امريكا لم تلعب دور الامبراطورية في أي يوم من الايام ، ومن يقول بأن الدولة الامريكية ولدت وفي دمها رغبة كبيرة في تكوين امبراطورية مهيمنة على اكبر جزء من العالم. إلى جانب ذلك ، ليس هناك اتفاق حول مدى الاستفادة التي تجنيها الدولة المهمة من القيام بدور الامبراطورية ، وما إذا كانت عائدات الهيمنة تتجاوز ، أو حتى تعادل تكاليف القيام بدور القوة المهيمنة ، وتحمل أعباء المسؤولية الدولية في تشكيل النظام العالمي وضمان الاستقرار.

رغم هذا التباين الكبير في الآراء ، ليس هناك شك في أن أمريكا ، وبسبب طبيعة تركيبها السكاني ، ولدت وفي دمها روح المغامرة والتحدي والتوسع على حساب الغير ، وهي صفات حملها المهاجرون الاوروبيون الأوائل معهم إلى العالم الجديد منذ بدايات القرن السادس عشر. ولقد جاءت التجارب العدوانية لأولئك المهاجرون لتكرس الرغبة في ممارسة الهيمنة ، وذلك من خلال الاستيلاء على أراضي الغير ، والعمل على التخلص من سكانها الاصليين ، واستعباد السود واستغلالهم في زراعة القطن وجني المحاصيل والعمل كعبيد وخدم في الاقطاعات وبيوت الاثرياء.

ومن الكتب التي صدرت حديثا وتناولت دور أمريكا على الساحة الدولية ، كتاب روبرت كاجان ، *الامة الخطرة: مكانة أمريكا في العالم من ايامها الأولى وحتى بدايات القرن العشرين*. يدعي الكاتب أنه منذ البدايات ، قامت أمريكا - وهنا لا يشير الكاتب إلى أمريكا الدولة بقدر ما يشير إلى أمريكا الامة - بالتعبد في محراب إله الحرب ، مدفوعة بدوافع التوسع والطموح والمثالية والمادية في آن واحد. كما يضيف الكاتب ، أنه بينما كانت أوروبا تفقد رغبتها وقدراتها ، خاصة العسكرية منها ، على استخدام القوة لحماية مناطق نفوذها في العالم ، التوجه بدلا من ذلك إلى الاستمتاع بالاستقرار والرخاء الذي تحقق لها ، كانت أمريكا تتجه نحو بناء قوة عسكرية لا تضاهى وتستعد نفسيا وسياسيا لاستخدام القوة العسكرية دون تردد على نطاق دولي واسع. ولقد جاء " مبدأ مونرو " الذي أعلنه الرئيس الأمريكي في عام 1823 ، كأول

إعلان رسمي عن أطماع الدولة الأمريكية الفتية وتوجهها إلى الهيمنة على العالم. ولقد تضمن إعلان مونرو القول إن أمريكا تعتبر كل محاولة من أية قوة أوروبية للسيطرة على دولة أسبانية - أمريكية ، أي على أية دولة في أمريكا اللاتينية ، توسعا عدوانيا عليها ، وأن القارتين الأمريكيتين مغلقتان في وجه الاستعمار والاستيطان الأوروبي.

جاء إعلان مونرو قبل أن يمضى على استقلال أمريكا نصف قرن ، ليشكل تحديا واضحا للدول الاستعمارية الأوروبية ، وليرسي أساسا لسياسة أمريكية خارجية تقوم على التوسع ، إذ اعتبرت أمريكا من خلال ذلك الإعلان أن كافة دول أمريكا اللاتينية تقع ضمن منطقة نفوذها ، وأنها ، أي أمريكا ، مستعدة لاستخدام القوة لحماية تلك القارة من محاولات التوسع الأوروبي. وقبل إنتهاء القرن التاسع عشر ، كانت أمريكا قد استكملت بناء اسطول بحري وحربي وتجاري ضخم ، وتدخلت في شؤون أكثر من دولة في أمريكا اللاتينية ، واختلقت اعدارا كافية لشن حرب ضد أسبانيا ومصالحها في القارة المجاورة.

وفي الواقع ، يشير تاريخ الاستيطان الاوروبي أن المهاجرين الأوائل كانوا يطمحون بتأسيس إمبراطورية تضاهي ، بل وتتفوق على الامبراطوريات الاوروبية التي جاؤوا منها. وهذا كان أحد الاسباب الرئيسية التي دفعت الأمريكيين إلى الثورة على بريطانيا وإقامة دولتهم في القرن الثامن عشر. ولقد تبع ذلك ، تراحم الأمريكيين على الكسب المادي ، مدفوعين بدوافع حاجات متنامية باستمرار ، ورغبات فردية وجماعية متزايدة بلا توقف ، واطماع مادية وامبريالية لا تحدها أخلاق ، ولا تنظمها أرسنقراطية متجذرة ، ولا تسيطر عليها دولة مركزية قوية ، ولا تردعها قوة خارجية ذات بأس.

حملت السياسة الخارجية الأمريكية ، ومذ البداية ، رسالة متناقضة تقوم على عناصر تجمع ما بين المثالية والمادية والنزعة الاستعمارية. ولأن الهدف المادي كان هو الأساس ، فإن المثالية استخدمت لاختفاء ذلك الوجه وتبرير المطامع الاستعمارية. ولذا دأبت السياسة الأمريكية على الادعاء بأنها تدافع عن حقوق إنسانية ، وتعمل على نشر قيم ومبادئ عالمية ، وترسي اسس دولية لحماية الأمن والاستقرار العالمي ، وتدافع عن مصالح قومية أمريكية في آن واحد. وتشير مجريات الأمور في العراق ، ومبررات شن الحرب عليه في عام 2003 ، والاهداف المعلنة لتلك الحرب أن المصلحة المادية والرغبة في الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط الغنية بالبتروول ، واستمرار استخدام القوة العسكرية كانت الدوافع الرئيسية التي دفعت أمريكا إلى غزو العراق واسقاط النظام الحاكم فيه وتدمير مؤسساته الرسمية.

يقول كاجان في كتابه أيضا أن القوة العسكرية لا تدعم السياسة الخارجية فقط ، بل تقوم في الواقع بتحديد عناصرها، وانه كلما استحوذت أمريكا على قوة إضافية كلما تعمق إحساسها باتساع نطاق نفوذها وتزايد مصالحها وتنامي استحقاقاتها. وهكذا ، كلما غدت المصالح في مخيلة الشعب وصانع القرار أكبر ، كلما أصبحت المخاطر الخارجية - من وجهة نظر الدولة - أعظم وأخطر ، وهذا بدوره يجعل الحاجة للاستحواذ على المزيد من القوة العسكرية لمواجهة المخاطر أكثر إلحاحا... وكلما استحوذت الدولة على المزيد من القوة العسكرية ، كلما أصبحت أحلامها رغبات ، ورغباتها احتياجات ، واحتياجاتها حتميات ، والحتميات إلى إمبراطوريات.

وعليه يمكن القول أن الامبراطورية ، أيا كانت أهدافها ودوافعها ، تشكل خطرا على نفسها وعلى محيطها ، وأن الحد من ذلك الخطر لا يتأتى إلا من خلال خلق توازن دولي يحد من إرادتها على استخدام القوة ، ويطور قوانين دولية تحمي حقوق الدول الصغيرة وتعمل على تأسيس نظام عالمي يقوم على العدل والانصاف.

professorrabie@yahoo.com

د. محمد عبد العزيز ربيع

للتشر يوم 28-11-2006